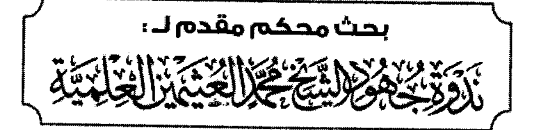
التأمل والاستنباط
في آيات الكتاب
بين الشيخ العُثيمين وشيخه السعدي

إعداد
د. محمد بن حمد بن عبدالله المحيميد
الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة القصيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله القائل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.. **أما بعد:**

فإن الناظر في كتب التفسير المتقدمة يجد أنها في الغالب تسير على نمط علمي رفيع، ويقل فيها الاستنباط وتنزيل الآيات على واقع الناس بحسب عصر المفسر، لذا كان مجال الاستنباط مجالاً رحباً أمام العلماء المعاصرين، وهذا ما استغله الإمامان الجليلان: الشيخ السعدي وتلميذه العثيمين، ولما رأيت إبداعهما في ذلك دعاني هذا إلى لفت الأنظار لطريقتهما، ومحاولة المقارنة بين مسلكيهما، فكان هذا البحث المتواضع.

أما عن خطة البحث فقد قسمته كالتالي:

مقدمة وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، تفصيلها كالتالي:

المقدمة: وهي ما أنا بصددها.

* **تمهيد:** ويشتمل على:

١ـ المراد بالتأمل للآيات.

٢ـ المراد بالاستنباط منها.

٣ـ أهمية التأمل والاستنباط عند المفسرين.

* **المبحث الأول:** (ترجمة موجزة لكل من الشيخين الجليلين ـ العثيمين، والسعدي رحمهما الله تعالى).

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترجمة موجزة للعلامة العثيمين رحمه الله.

المطلب الثاني : ترجمة موجزة للعلامة السعدي رحمه الله.

* **المبحث الثاني: التأمل والاستنباط عند ابن عثيمين رحمه الله تعالى.**

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قوة التأمل عند الشيخ العثيمين لآيات القرآن وأمثلة لذلك.

المطلب الثاني : كثرة الاستنباط وسعته لدى تفسير الشيخ للآيات ومرجع ذلك وسياق أمثلة لذلك.

المطلب الثالث: التجديد عند العثيمين في طريقة تفسير الآيات والاستنباط منها

* **المبحث الثالث: التأمل والاستنباط عند السعدي رحمه الله.**

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: قوة التأمل عند الشيخ السعدي لآيات القرآن وأمثلة لذلك.

المطلب الثاني : الاستنباط عند السعدي وأمثلة لذلك.

* **المبحث الرابع: موازنة بين الشيخين من حيث:**

التأمل والاستنباط عند تفسير آيات الكتاب.

* **الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.**

أسأل الله أن يسددنا في القول والعمل

ويرزقنا العلم بكتابه والعمل.

التمهيد

(١) المراد بالتأمل للآيات:

التأمل في اللغة هو النظر إلى الشيء لتبين ما فيه وما ينطوي عليه، وللتثبت من أمره.

قال ابن منظور: «التأمل: التثبت. وتأملت الشيء أي نظرت إليه مستثبتاً له، وتأمل الرجل: تثبت في الأمر»[(١)].

والظاهر أن التأمل يكون في المحسوسات والمعقولات، والذي يعنينا هو الثاني، فالتأمل للآيات النظر الدقيق لمعانيها وما تشتمل عليه من أحكام وحكم ودروس وعبر، وهذا معنى التدبر للقرآن والتفكر في معانيه.

قال السمين الحلبي: «التأمل: التدبر، وهو النظر في عواقب الشيء والتفكر فيها. ومنه تأمل المسألة»[(٢)].

وفي نظري أن التأمل هو إمعان النظر والتدبر الطويل للآيات القرآنية.

(٢) المراد بالاستنباط من الآيات:

الاستنباط في اللغة استخراج المعاني والمدلولات، واجتهاد العالم والفقيه في استخراج ذلك من بطون النصوص باجتهاده وإعمال ذهنه حسب فهمه العميق.

قال الأزهري: «استنبط الفقيه: إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ (النساء: ٨٣). في اللغة:

---

(١) لسان العرب ١١/ ٢٧ (أمل)، وانظر: الصحاح ٤/ ١٦٢٧ (أمل)، والقاموس المحيط بترتيب الزاوي ١/ ١٧٨ (أمل).

(٢) عمدة الحفاظ ١/ ١٣٢ (أمل).

«يستخرجونه، وأصله من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر»[1].

هذا في اللغة أما عند المفسرين فإنه يدور حول هذا المعنى، وهذه الآية التي يستشهد بها أهل اللغة ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣). هي الآية الوحيدة في هذه المادة اللغوية.

والاستنباط عند المفسرين هو التدبر للآيات والتفكر في معانيها وما تتضمنه من حكم وأحكام وما تهدي إليه من دروس وعبر ومحاولة استخراج ذلك كي ينتفع به التالي لكتاب الله عز وجل.

قال السعدي رحمه الله: «وقد كثرت تفاسير الأئمة ـ رحمهم الله ـ لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد.

وكان الذي ينبغي أن يجعل المعنى هو المقصود، واللغة وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه»[2].

(١) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٧١ (نبط)، وانظر: جامع البيان ٨/ ٥٧١، ولسان العرب ٧/ ٤١٠ (نبط)، وعمدة الحفاظ ٤/ ١٥٩ (نبط).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٨.



(٣) أهمية التأمل والاستنباط عند المفسرين:

القرآن العظيم كتاب هداية وعظة، أنزله الله عز وجل للتدبر والتفكر والعمل بما فيه قال عز وجل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

والاستنباط من الآيات نتيجة لهذا التدبر والنظر، ولذا كان باب الاجتهاد في تفسير القرآن مفتوحاً إذا توافرت الأدوات التي يحتاجها المفسر، وذلك منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى وقتنا هذا.

وما هذه التفاسير التي تملأ المكتبات اليوم وتشتمل على التفسير بالدراية سواء كانت لغوية أو بيانية أو فقهية أو أدبية وغيرها، إلا شاهد على أهمية التأمل والاستنباط عند المفسرين، لكن ذلك يقل ويكثر بحسب جهد المفسر وإعماله النظر لآيات القرآن كي يستنبط منها ما يظهر له، وما يفتح به الله عليه، كما أشار العلامة السعدي آنفاً[1].

ومن المفسرين الذين يظهر عندهم الاستنباط الإمام القرطبي رحمه الله في أحكام القرآن، فإن كثيراً من المسائل التي يسوقها مبنية على التأمل لمعاني الآيات والاستنباط منها حسب اجتهاده أو اجتهاد من نقل عنه من الأئمة، وكذا الحافظ ابن كثير فإنه يستنبط أحياناً كثيرة.

هذا على سبيل التمثيل، لا على سبيل الاستطراد أو الحصر، مما يتسع له المقام في هذا التمهيد.

***

(١) انظر فيما سبق بداية البحث.

المبحث الأول

ترجمة موجزة لكل من الشيخين الجليلين
(العثيمين والسعدي رحمهما الله)

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترجمة موجزة للعلامة العثيمين رحمه الله

المطلب الثاني: ترجمة موجزة للعلامة السعدي رحمه الله

**

المطلب الأول

ترجمة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله

اسمه ومولده ونشأته وطلبه للعلم:

هو الشيخ العلامة محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبدالرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد ليلة السابع والعشرين من رمضان لعام ١٣٤٧هـ في عنيزة، وفيها نشأ وبدأ رحلة طلب العلم حيث ألحقه والده عند جده لأمه لتعلم القرآن الكريم، وتعلم الكتابة وشيئاً من الحساب في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن دامغ، ثم التحق بمدرسة المعلم علي بن عبدالله السحيتان، فحفظ القرآن ولم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ثم أقبل على طلب العلم الشرعي وأكب عليه وكان الشيخ ابن سعدي قد رتب حلقتين في الجامع الكبير لصغار الطلاب فانضم الشيخ رحمه الله إلى مدرسة الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع فأدرك من العلم شيئاً كثيراً فانتقل إلى حلقة كبار الطلاب عند الشيخ ابن سعدي،

وابن سعدي هو شيخه الأول فدرس عليه التفسير والحديث والسيرة والتوحيد والفقه والأصول والفرائض، وجلس للتدريس عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير في عنيزة.

مشايخه:

انتفع رحمه الله بعلم كثيرين ومن هؤلاء:

١- الشيخ ابن سعدي.

٢- الشيخ عبدالرحمن بن عودان.

٣- العلامة المفسر محمد الأمين الشنقيطي.

٤- الشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد.

٥- الإمام العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

٦- الشيخ المحدث عبدالرحمن الأفريقي.

أعماله:

لما تخرج رحمه الله من المعهد العلمي بالرياض عين مدرساً في المعهد العلمي في عنيزة عام ١٣٧٤هـ، ولما توفي شيخه ابن سعدي عام ١٣٧٦هـ تولى بعده إمامة الجامع الكبير والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع، ولما كثر الطلاب انتقل بالدرس إلى الجامع نفسه، وفي عام ١٣٩٨هـ انتقل رحمه الله إلى التدريس بكلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام بالقصيم، وكان يدرس بالمسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج والعمرة منذ عام ١٤٠٢هـ حتى توفي رحمه الله، وهو رحمه الله عضو في هيئة كبار العلماء في السعودية منذ عام ١٤٠٧هـ، وعضو في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من ١٣٩٨هـ إلى ١٤٠٠هـ، وفي آخر تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية وألف عدداً من الكتب المقررة، وهو عضو في لجنة التوعية بالحج منذ عام ١٣٩٢هـ حتى توفي رحمه الله، وترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم بعنيزة منذ تأسيسها عام ١٤٠٥هـ حتى وفاته،

وشارك في عدة برامج إذاعية كبرنامج «نور على الدرب» في إذاعة القرآن الكريم.

مؤلفاته:

اهتم رحمه الله بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة، وتميز بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له عشرات الكتب، وصدر له آلاف المواد الصوتية المسجلة لدروسه وخطبه ولقاءاته وبرامجه، وأعظم مؤلفاته أثراً وأكثرها شيوعاً: «الشرح الممتع على زاد المستقنع»، وقد أنشئت مؤسسة خاصة بتوجيه منه رحمه الله سميت باسمه تقوم على إخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

مكانته العلمية:

يُعَدّ رحمه الله من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله تعالى بمنه وكرمه تأصيلاً ومَلَكَة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنة وسبر أغوار اللغة العربية معانياً وإعراباً وبلاغة، ولما تحلى به رحمه الله من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبه الناس محبة عظيمة، وقدره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه، وقد مُنح جائزة الملك فيصل رحمه الله العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ.

مرضه ووفاته:

أصيب رحمه الله بمرض السرطان فصبر واحتسب وصار مضرب المثل في الصبر والاحتساب حتى وافته المنية يوم الأربعاء ١٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ وصلى عليه بعد عصر يوم الخميس ١٦/ ١٠/ ١٤٢١هـ في المسجد الحرام ودفن في مكة المكرمة[1].

---

(١٠) انظر: مقدمة شرح رياض الصالحين ج ـ ي، وجهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ص ٢١ ـ ٥٤، والموقع الرسمي للشيخ ابن عثيمين..

المطلب الثاني

ترجمة الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ

اسمه ومولده ونشأته وطلبه للعلم:

هو الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي من النواصر من بني عمرو من بني تميم.

ويسكن بنو عمرو في قرية قفار في حائل (شمال نجد)، وقد قدمت أسرة السعدي من قرية المستجدة في حائل إلى عنيزة في حوالي عام ١١٢٠هـ.

ولد رَحِمَهُ اللَّهُ في عنيزة ١٢/ ١/ ١٣٠٧هـ وتوفيت أمه ثم توفي أبوه وهو لا يزال صغيراً يتيماً، فعاش في كنف زوجة والده، كما اعتنى به أخوه حمد عناية فائقة.

وقد نشأ رَحِمَهُ اللَّهُ نشأة صالحة منذ الصغر وعرف بالصلاح والتقوى وأقبل على طلب العلم وحفظ القرآن ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة وأكب على العلم وانقطع من أجله، حتى تتلمذ عليه بعض أصحابه وزملائه لما رأوا نبوغه.

وقد من الله عليه بالفهم والذكاء فدرس الفقه الحنبلي ودَرَسَ فن الحديث والتفسير فبرع فيه، واهتم بعلوم ابن القيم وابن تيمية فتفتق ذهنه وتوسعت مداركه وصار من العلماء المجتهدين وجلس للتدريس وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وقد رحل من أجل طلب العلم إلى الحرمين الشريفين ومصر والشام والعراق والكويت وغيرها.

مشائخه:

١ـ الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل.

٢ـ الشيخ المقريء عبدالله بن عائض.

٣ـ الشيخ عبد الله أبا بطين.

٤ـ الشيخ إبراهيم بن جاسر.

٥ـ الشيخ علي بن محمد السناني.

٦ـ الشيخ محمد بن عبدالله آل سليم.

٧ـ الشيخ محمد بن مانع.

٨ـ الشيخ المؤرخ إبراهيم بن عيسى.

صفاته الخَلْقية:

كان متوسط الطول، كثيف الشعر، مستدير الوجه، له لحية كثة، ولونه أبيض مشربٌ بحمرة، وكان على وجه حسن ونور.

صفاته الخُلُقية:

كان آية في الأخلاق وحسن السمت، والتودد إلى الناس، وكان طلق المحيا ذا دعابة ومرح، عفيف اليد، نزيه العرض، عزيز النفس، يسعى بين الناس بالصلح، وكان محل التقدير والثناء من الناس العامة والخاصة.

أعماله:

قام رحمه الله بأعمال كثيرة كالتدريس والخطب وغيرها، وساهم وأسس وشجع كثيراً من الأعمال الخيرة، فقد كان مرجعاً للناس في عنيزة، فهو المدرس والواعظ والخطيب والمفتي وكاتب الوثائق ومحرر الوصايا وعاقد للأنكحة، يؤدي ذلك كله بدون مقابل مادي، وقد عرض عليه القضاء في عام ١٣٦٠هـ فأبى واغتم لذلك وأغمي عليه من أجل ذلك عدة مرات، وكان يشرف على المعهد العلمي في عنيزة منذ تأسيسه عام ١٣٧٣هـ.

مؤلفاته:

كان له رحمه الله الأثر العظيم بعد الله تعالى في النهضة العلمية في عنيزة وفي غيرها

وقد أتاه الله سبحانه قلماً سيالاً وذهناً متفتقاً وفهماً واسعاً فخلف مجموعة كبيرة من المؤلفات في فنون شتى، وأعظم مؤلفاته: تفسيره المسمى بـ: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وله خلاصة التفسير والقواعد الحسان، والفتاوى، وغيرها، ومؤلفاته تزيد على ثلاثين مؤلفاً.

تلاميـــذه:

تلاميذه كثيرون جداً من عنيزة وخارجها، فمنهم:

١ـ الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام.

٢ـ الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع.

٣ـ الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين.

٤ـ الشيخ عبدالله محمد بن عبد العزيز بن المقبل.

٥ـ الشيخ عبد الله بن عبدالرحمن بن بسام.

٦ـ الشيخ عبدالعزيز بن محمد السلمان.

٧ـ الشيخ صالح بن عبد الله الزغيبي.

٨ـ الشيخ على بن حمد الصالحي.

٩ـ الشيخ حمد الصغير.

مرضـه ووفـاته:

أصيب قبل وفاته بخمس سنين تقريباً بمرض ضغط الدم وتصلب الشرايين وكان يعتريه المرض مرة بعد مرة حتى توفاه الله سنة ١٣٧٦هـ وعمره ٦٩ سنة فرحمه الله رحمة واسعة (١١).

(١) انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون ٣/ ٢١٨ رقم ٣٢١، الأعلام ٣/ ٣٤٠، ومقدمة شرح منظومة القواعد الفقهية للشيخ السعدي شرح د. عبد العزيز العويد ص ٢١ ـ ٢٥، والموقع الرسمي للشيخ ابن سعدي.

المبحث الثاني

التأمل والاستنباط عند ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : قوة التأمل عند الشيخ العثيمين لآيات القرآن مع التمثيل.

المطلب الثاني: كثرة الاستنباط وسعته لدى تفسير الشيخ للآيات ومرجع ذلك وسياق أمثلة لذلك.

المطلب الثالث: التجديد عند العثيمين في طريقة تفسير الآيات والاستنباط منها.

***

المطلب الأول

قوة التأمل عند الشيخ لآيات القرآن مع التمثيل

الناظر في تفسير الشيخ العثيمين رحمه الله للآيات وكلامه على معانيها يرى جلياً قوة تأمل الشيخ للآيات وعمق تدبره لمعانيها وما تدل عليه وما تشمل من المسائل العلمية الكثيرة والفوائد التربوية المتنوعة، وأحياناً كثيرة يستنبط استنباطات دقيقة وعظيمة لم يسبق إليها.

وقد أشار رحمه الله في مقدمة كتابه «أحكام من القرآن» إلى أهمية التأمل والتدبر للقرآن لاستخراج الفوائد منه، حيث قال: «وأحكام القرآن هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية والدنيوية، والفردية والاجتماعية. لا ريب أن كل آية في كتاب الله تتضمن فوائد عظيمة يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه، ولا ريب أن الإنسان يؤتى العلم بحسب ما معه من الإيمان والهدى والتقى، كما قال الله تعالى:

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ (مريم: ٧٦)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد: ١٧)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٤)، وكلما كان الإنسان أشد إقبالاً على القرآن الكريم، وإيماناً به، وحباً له، وتدبراً لآياته كان به أفهم، وبما يدل عليه من الفوائد العظيمة والأحكام أوسع، ولهذا فإني أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله ـ عز وجل ـ وتفهم معانيه، والرجوع فيما يعرفونه إلى أهل العلم...، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما أنزل القرآن لهذا، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، تلاوة الآيات الحرفية، بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أتم وأكمل، وهو تدبر الآيات وتفهم معانيها، ثم التذكر بما فيها من القصص والأخبار والمواعظ والأحكام، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً[1].

وكثير من الناس اليوم لا يهتم بهذا الجانب، أعني جانب المعنى وجانب التدبر وما تتضمنه الآيات من الفوائد والأحكام ولا يعنون به وهذا قصور بلا شك من الإنسان وتقصير منه....»[2].

ويتابع الشيخ مبيناً أهمية التأمل والتدبر للآيات للغوص على معانيها وما تشتمل على من فوائد كثيرة ومتنوعة قائلاً:

(١) ورد ذلك عن ابن مسعود وأبي عبدالرحمن السلمي يروي عن الصحابة بأسانيد صحيحة كما في جامع البيان ١/ ٨٠.
(٢) أحكام من القرآن الكريم ص ٥ ـ ٧..



«ونحن في هذا الكتاب (يعني أحكام من القرآن)، لن نتكلم كثيراً عن تفسير الآيات وبيان وجوهها اللغوية من البلاغة والإعراب، وغير ذلك، لأن هذا والحمد لله موجود في كثير من كتب المفسرين، ولكن يهمني أن أبين الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات، وأبين وجه ذلك غالباً فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالته، لأن الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطريقة يحصل بها علم كثير، ولهذا لما سئل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه هل عهد إليكم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء؟ فقال: «لا والذي برأ النسمة وفلق الحبة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في كتابه وما في هذه الصحيفة..» وهي فكاك الأسير[1].الخ ما فيها، لكن المهم أنه قال: «إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في كتابه «وهذا يدل على أن الفهم في كتاب الله يحصل به خير كثير وعلم غزير..»[2].

إن قول الشيخ رحمه الله: «ولكن يهمني أن أبين الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات، وأبين وجه ذلك غالباً فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالته «يدل دلالة واضحة على قوة التأمل عند الشيخ رحمه الله للآية واجتهاده الكبير في النظر في الآيات والغوص على دقائق دلالاتها واستخراج الدرر منها، وهذا ما فعل في تفسيره فإنه يستنبط من الآية الواحدة فوائد كثيرة جداً ومتفرعة لا تكاد تخطر على بال كثير من أهل العلم، وسيتضح ذلك إن شاء الله من خلال الأمثلة الآتية:

المثال الأول:

لما بين الشيخ المعنى العام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (البقرة: ٦ – ٧).

(١) أخرجه البخاري بنحوه في كتاب الجهاد / باب ١٧١ فكاك الأسير ٤/ ٣٠ ولفظه «إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن» الحديث..

(٢) أحكام من القرآن.الكريم ص ٨.

استنبط الفوائد من الآيتين بقوله:

١ـ أن من حقت عليه كلمة الله من الكافرين لا يمكن أن يؤمن، سواء رُغِّب أم لم يُرَغَّب، لأنه قد طبع على قلبه، فلا يمكن وصول الهداية إليه.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية أيضاً تسلية النبي ﷺ حتى لا يضيق صدره، ولا يكون في نفسه حرج، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣)، فالنبي ﷺ ومن ورثه من أهل العلم عليهم البلاغ والدعوة إل الله ـ عز وجل ـ وبعد ذلك لا يضرهم من ضل ما داموا على الاهتداء، كما قال الله ـ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ (المائدة: ١٠٥).

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن رسول الله ﷺ قد قام بإنذار هؤلاء الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين قد حقت عليهم كلمة العذاب، فلم يجد فيهم الإنذار شيئاً.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمن على من يشاء من عباده، فمن عباد الله من يشرح الله صدره وييسر له أمره، يشرح صدره للإسلام حتى يفرح به ويستبشر به ويتسع صدره لقبوله، فيقبله وينفذ أحكام الله ـ عزَّ وجل ـ على الوجه الذي يرضاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ومن الناس من يكون على العكس من هذا، فيضيق صدره حرجاً بما سمع من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

فإن قال قائل: **كيف يهدي الله قوماً ويضل آخرين؟**

فالجواب: أن هذا السؤال لا يرد، لأن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء، فله أن يمن على من يشاء من عباده فيهديهم إلى صراطه المستقيم كما قالت الرسل لأقوامهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (إبراهيم: ١١).

ونقول **ثانياً**: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يهدي إلا من كان أهلاً للهداية، ولا يضل إلا من كان أهلاً للضلالة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف: ٥)، فلا يضل من ضل إلا بسبب من نفسه، يكون قلبه غير مريد للحق وغير قابل له، والله تعالى يعلم من ذلك فيكتب الله له الشقاء والضلال، نسأل الله الهداية.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يكون دائماً على حذر، وألا يعتمد على نفسه، وأن يخشى من الزيغ والضلال، وأن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ دائماً الثبات على الحق، والموت عليه، وأن يحمد الله الذي من عليه بالهداية، وقد أضل قوماً آخرين.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة إثبات الجزاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧).

٧ـ ومن فوائدها إثبات حكمة الله، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يعذب هؤلاء إلا لاستحقاقهم العذاب بكفرهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وبما يجب عليهم الإيمان به[1].

بهذه الطريقة مشى الشيخ رحمه الله في تدبره للآيات وتأمله العميق لمعانيها ومن ثم الاستنباطات المتنوعة منها، وهذا لا يتأتي إلا من عالم راسخ في العلم من أمثال الشيخ رحمه الله وبهذه الاستنباطات يجد المطلع عليها التذوق للفتات التربوية من الآيات ويقف على الدروس والعبر منها بأسلوب شيق سهل مع العمق في التأمل

(١) أحكام من القرآن الكريم ص ٦٨ ـ ٧١.

والاستنباط من الشيخ رحمه الله.

المثال الثاني:

بعد أن فسر قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٤٨).

ذكر الفوائد التي استنبطها من هذه الآية بقوله:

الفوائـــــد:

١ـ من فوائد الآية: أن الأمم قد تختلف مناهجها، وإن اتفقت على أصل واحد وهو الإسلام، ونعني بـ (الإسلام) المعنى العام، وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تُنسَخ.

٢ـ ومنها: أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان، ولا ينظر إلى كثرة المخالف، لا يقل: الناس على كذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحق، لأن قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ يشمل الوجهة الشرعية، والوجهة القدرية، يعني ما وجه الله العباد إليه شرعاً، وما وجههم إليه قدراً، الوجهة القدرية معروفة: فمن الناس من يهديه الله تعالى فيكون اتجاهه إلى الحق،ومن الناس من يُخذَل فيَضل، فالوجهة التي يتبعها المشركون واليهود والنصارى، وما أشبه ذلك هذه وجهة قدرية، أما شرعية فلا، لأن الله ما شرع الكفر أبداً، ولا شرع شيئاً من خصال الكفر، والوجهة الشرعية: اختلاف الشرائع بين الناس، فلا تظن أن اختلاف الشريعة الإسلامية عن غيرها معناه أنها ليست حقاً، فإنها الحق من الله.

٣ـ ومن فوائد الآية: وجوب المسابقة إلى الخير، لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾.

٤ـ ومنها: أن الأمر يقتضي الفورية، لأن الاستباق إلى الخير لا يكون إلا بالمبادرة إلى فعله، فهذه الآية مما يستدل به على أن الأمر المطلق للفورية.

٥ـ ومنها: البلاغة التامة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ دون (استبقوا إلى الخيرات)، وإن كان بعض الناس يقولون: إنها نُزِع منها حرف الجر، وليس بصحيح، لأن ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يشمل الاستباق إليها، والاستباق فيها، فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف، بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقاً، وهذا يشبهه قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦)، فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط، ويستمر فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

٦ـ ومن فوائد الآية: إحاطة الله تعالى بالخلق أينما كانوا، لقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ١٤٨).

٧ـ ومنها: الإشارة إلى البعث، لأن الإتيان بالجميع يكون يوم القيامة.

٨ـ ومنها: إثبات عموم قدرة الله ـ عزَّ وجل ـ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٠)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (فاطر: ٤٤).

وهناك كلمة يقولها بعض الناس فيقول: «إن الله على ما يشاء قدير»، وهذا لا ينبغي:

أولاً: لأنه خلاف إطلاق النص، فالنص مطلق.

ثانياً: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ، والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثاً: أنه قد يفهم منه مذهب المعتزلة القدرية الذين قالوا: «إن الله ـ عزَّ وجل ـ لا يشاء أفعال العبد، فهو غير قادر عليها».

ولهذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسه، فنقول: إن الله على كل شيء قدير،

أما إذا جاءت القدرة مضافة إلى فعل معين فلا بأس أن تقيد بالمشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٩)، فإن ﴿يَشَاءُ﴾ عائدة على (الجمع)، لا على (القدرة)، فهو قدير على الشيء شاءه، أم لم يشأه، لكن جمعه لا يقع إلا بالمشيئة.

ومنه الحديث في قصة الرجل الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى، فقال: (ولكني على ما أشاء قادر)[1]، لأنه يتكلم عن فعل معين، ولهذا قال: (قادر): أتى باسم الفاعل الدال على وقوع الفعل دون الصفة المشبهة ـ (قدير) ـ الدالة على الاتصاف بالقدرة»[2].

في هذه الاستنباطات دلالة واضحة على عمق التأمل عند الشيخ رحمه الله: لآيات القرآن وقوته في ذلك وإبداعه فيه، ونجد التنوع في هذه الفوائد بين فقهية، وعقدية، وآداب، وغير ذلك.

(١) أخرجه مسلم ص٧١٢، كتاب الإيمان، باب ٨٣، آخر أهل النار خروجاً ١/ ١٧٥، حديث رقم ٣١٠.
(٢) تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) ٢/ ١٤٧ ـ ١٤٩.

المطلب الثاني

كثرة الاستنباط وسعته لدى تفسير الشيخ ومرجع ذلك وسياق أمثلة عليه

كثرت الاستنباطات في تفسير الشيخ واتسعت، فتجده يقف عند الآية الوجيزة ويستنبط منها الفوائد الكثيرة، المتنوعة والدقيقة.

ومن أمثلة ذلك إضافة إلى ما تقدم في المبحث السابق.

المثال الأول:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

بعد أن فسرها بأسلوب ميسر مختصر استنبط منها أربعين فائدة[1]، وكثير من هذه الفوائد لا تظهر لكل أحد، ولا تظهر إلا بتأمل دقيق وتدبر طويل، وقد ظهرت للشيخ وفتح الله بها عليه لطول باعه في العلم وفقهه واطلاعه على مقاصد الشريعة وأحكامها.

المثال الثاني:

عندما فسر قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (الصافات: ١١).

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) ٢/ ٣٩٦ - ٤١٣..

استنبط من هذه الآية الوجيزة اثنتي عشرة فائدة جليلة حيث قال:

الفوائـــــد:

١- في هذه الآية الكريمة: ما يدل على أن الرسول ﷺ مكلف بالإبلاغ والمحاجة، لقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ وهو كذلك، فإن الله أمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة: ٦٧)، وأمره أن يجادل قومه ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (االنحل: ١٢٥)، وأخبر بأنه يحاجهم لقوله: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران: ٢٠).

٢- ويتفرع على هذه الفائدة: أن وظيفة أهل العلم الذين ورثوا علمه كوظيفته في هذا الباب فيلزمهم محاجّة أهل الباطل ومقارعتهم.

٣- ويتفرع على ذلك: أن العلم نوع من الجهاد في سبيل الله، لأن طالب العلم يحاجُّ أعداء الشريعة بالحق ليدحض به باطلهم، وأحياناً يكون الغزو الفكري أعظم فتكاً من الغزو المسلح كما هو مشاهد، فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت بدون أن يجد معارضة أو مقاومة، لكن الغزو العسكري لا يدخل البيت، بل ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم ـ أحياناً ـ بالغزو المسلح بالقتال وهذا يمكن التحرز منه، وأحياناً بالغزو الفكري، وهو أشد وأنكى من الغزو المسلح، لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام من أفئدتهم مسحاً كاملاً، وهم لا يشعرون، لأنهم يغرون المسلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات: نسي ما خلق له، نسي عبادة الله، ولم يكن في قلبه تعلق بالله ـ عزَّ وجل ـ، فتجد الإنسان في حال قيامه وقعوده وذهابه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشهوات، ولا يسعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يخلق لغيرها.

كذلك يغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار، وأنهم أكثر تقدماً وأشد حضارة وأقوم طريقاً وما شابه ذلك. فينصهر المسلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لا شك أنه موجود، وأن كثيراً من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري. إنهم لو غزوا البلاد الإسلامية غزواً عسكريّاً لحلوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلوب الناس نافرة منهم مبغضة لهم، لكن المشكل أن يغزو الناس بصفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم وهم جالسون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب، هذا هو المشكل، وهذا هو الدمار، ولهذا كان الغزو بالسلاح العلمي المستمد من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ مساوياً، إن لم يكن أنفع وأبلغ من الغزو العسكري، فأنا أحثكم ـ بارك الله فيكم ـ وأحث نفسي على أن نعد العدة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة حتى نحمي المسلمين من شر هؤلاء، لأن سلاحهم أعظم فتكاً وأشد من سلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر، وربما من خرج منكم إلى البلاد الأخرى، عرف أكثر مما أعرف مما أدى إلى الانحراف في العقيدة، والانجراف وراء الشهوات التي أصبحت بعض البلاد الإسلامية كأنها بلاد كافرة، وهم الآن يحاولون أن يغزو هذه البلاد بكل ما استطاعوا، حتى إننا نجد ـ أحياناً ـ في الصحف ينشر الدعوة إلى اضمحلال أخلاق المسلمين وعاداتهم، ينشر أحياناً دعاية للأزياء الأوروبية والإفرنجية، وبهذا اللفظ يفتح معرض للأزياء الغربية أو الأزياء الأوروبية أو الموضات الأوروبية أو ما أشبهه، كل هذا لأجل أن يفسدوا أخلاقنا، وإذا فسد الخلق فسدت العقيدة، وإذا فسدت العقيدة زال تعلق المسلمين بربهم، وحينئذ صاروا أضعف الأمم نسأل الله الحماية والسلامة.

٤ـ **ومن فوائدها**: أمر الله تعالى؛ النبي ﷺ أن يتحدى هؤلاء المكذبين بالاستفتاء: أهم أشد خلقاً أم من خلقنا؟.

٥ـ **ومن فوائدها أيضاً**: أنه ينبغي في المجادلة أن يؤتى بما يقر به الخصم ليكون

حجة عليهم، لأنهم سيقرون بأن من خلق الله أشد خلقاً منهم، فإذا أقروا بذلك قامت عليهم الحجة.

٦ـ **ومن فوائدها**: عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعظمة خلقه، لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق، ولهذا إذا شاهدنا قصراً جيداً في بنائه وهندسته عرفنا أن الذي بناه كان جيداً ماهراً، والعكس بالعكس.

٧ـ **ومن فوائدها**: الإشارة إلى خلق بني آدم، أو إلى أصل خلقهم بأنهم خلقوا من طين لازب، يلصق باليد مهين لقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

٨ـ **ومن فوائدها**: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث خلق هذا الإنسان الخصيم المبين من هذا الطين ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها**: الإشارة إلى إمكان البعث، وأن الله قادر عليه، وأنه القادر على هذه المخلوقات التي هي أشد خلقاً منهم وعلى خلقهم من الطين قادر على إعادتهم ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

١٠ـ **ومن فوائدها**: إثبات الخلق لله في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾.

١١ـ **ومن فوائدها أيضاً**: تفاوت الخلق في العظم، لقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾، فتكون المخلوقات متفاوتة في عظمها ودلالتها على قدرة الله، لأن ما كان أعظم كان أدل على القدرة.

١٢ـ ويتفرع على هذه الفائدة: أنه كما تتفاضل الآيات الكونية كذلك تتفاضل الآيات الشرعية، ولهذا كان أعظم السور في كتاب الله سورة (الفاتحة)[1]، وأعظم

(١) عن أبي سعيد بن المعلى قال له رسول الله ﷺ: (**لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن**) قال: (**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**). أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب١، ما جاء في فاتحة الكتاب ٥/ ١٤٦.

آية (آية الكرسي) [1]، و(قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن [2]، فالآيات الكونية تتفاضل بعضها أدل على القدرة من بعض، وكلها دليل على القدرة حتى الذباب أهون شيء، يدل على قدرة الله - عزَّ وجل -، وكذلك الآيات الشرعية.

المثال الثالث:

استنبط رَحِمَهُ اللهُ من قصة يونس في سورة الصافات أربعاً وعشرين فائدة [3] في كلام طويل جليل.

ومن بديع الفوائد قوله:

«...٦ـ من فوائدها: أن الله - سبحانه وتعالى - قد ييسر للعبد ما لا يكون له في الحسبان، وذلك من قوله: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (الصافات: ١٤٠). حيث قدر كله أن يركب هـذا الفلك المملوء من أجل الغاية التي أرادها الله، وهي أن يلتقمه الحوت ويغيبه ويضيق عليه حتى يتبين له أنه لا مفر من قدر الله، كما قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧)....

٩ـ **من فوائدها**: ارتكاب أدنى الضررين لدفع أعلاهما، ووجه ذلك: أن هذه القرعة سيكون فيها هلاك بعض الركاب، وهو أهون من هلاك الجميع، إذ فالواجب إذا كان لا بد من الضررين ارتكاب الأدنى...

١١ـ **ومن فوائدها**: حصول آية من آيات الله - عز وجل - وذلك بتسخير هذا الحوت ليونس حتى التقمه بدون مضغ، ولا شك أن هذا من آيات الله، لأن مثل

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤، فضل سورة الكهف وآية الكرسي ١/ ٥٥٦، حديث ٨١٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب ١٣، فضل (قل هو الله أحد) ٦/ ١٠٥، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٥، فضل قراءة قل هو الله أحد ١/ ٥٥٦، حديث ٨١١.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم (سورة الصافات) ص ٣٠٥ـ ٣١٥.



هذا بعيد في العادة، لأن العادة أنه يمضغ، لكن هذا التقمه جميعاً، لم يُكسر له عظم ولم يُهشم له شيء من أضلاعه أو غيرها.

١٢ـ **ومن فوائدها**: حب الإعذار من الله ـ عز وجل ـ وأنه يحب الإعذار من خلقه، أي إقامة العذر لما فعله ـ عز وجل ـ حتى لا ينسب فعله للظلم وللسفه، وتؤخذ من قوله: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات: ١٤٢). يعني ليس في حال لا يلام عليها، حتى يقال: إن في هذا ظلماً له أو سفهاً في حقه.....

١٨ـ **ومن فوائدها**: إثبات تأثير الأسباب، لقوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (الصافات: ١٤٦)، لأن هذه الشجرة تظله وتبرد عليه، وهي ـ كما أسلفنا ـ لينة الملمس، ويقال: إن الذباب لا يقع عليها، والله قادر على أن يظله بغمامة، وقادر أن يبقيه في الشمس في العراء، ولا يتأثر، لكن الله ـ عز وجل ـ يبين لعباده أن الأشياء تكون بأسبابها..».[١]

فهذا يدل على كثرة الاستنباطات عند الشيخ وتنوعها.

المثال الرابع:

في رسالة لطيفة للشيخ بعنوان «فوائد التقوى من القرآن الكريم» تتبع الشيخ رحمه الله أثر التقوى ونفعها من خلال الآيات القرآنية حيث بلغت سبع عشرة ومائة فائدة للتقوى[٢].

فالشيخ رحمه الله يتأمل الآيات كثيراً ويقيد فوائدها وآثارها، ويستقصي ذلك حسب جهده وعلمه وما يفتح به الله عليه.

إن الناظر في أجزاء تفسير الشيخ للسور يجد الاستنباطات الكثيرة حول الآيات، وفي أغلب الأحيان لا تقل فوائد الآية الواحدة عن عشر فوائد، وتكثر

(١) تفسير القرآن الكريم (سورة الصافات) ص٣٧ ـ ٤١.
(٢) انظر: فوائد التقوى من القرآن الكريم للشيخ العثيمين ص ١٠ ـ ٣١.

الفوائد وتقل بحسب موضوع الآية وطولها وقصرها، وإذا كانت الآية من آيات الأحكام كثرت فوائدها، كما في الآية الأخيرة من آيات الصيام : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧). فقد استنبط منها ثماناً وثلاثين فائدة، وكآية الحج المتقدمة استنبط أربعين فائدة، وعند تفسيره لآية الدَّين استنبط منها سبعاً وخمسين فائدة[١].

ما هو مرجع كثرة الاستنباطات عند الشيخ رحمه الله؟

لكثرة الاستنباطات عند الشيخ عدة أسباب ـ في نظري ـ أجملها فيما يلي:

السبب الأول:

غزارة علم الشيخ رحمه الله وسعة أفقه، وتنوع المجالات العلمية التي كان يعتني بها ويدرسها لطلابه، كالعقيدة والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه، ونحو ذلك.

السبب الثاني:

أن الشيخ رحمه الله أراد أن يكمل مسيرة المفسرين ويبدأ من حيث انتهوا، لا أن يسير حذوهم ويكرر أقوالهم.

يقول ـ في مقدمة تفسيره ـ: «ونحن في هذا الكتاب لن نتكلم كثيراً عن تفسير الآيات وبيان وجوهها اللغوية، من البلاغة والإعراب وغير ذلك، لأن هذا ـ والحمد لله ـ موجود في كثير من كتب المفسرين، ولكن يهمني أن أبين الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات، وأبين وجه ذلك غالباً فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالته، لأن الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطريقة يحصل به علم كثير..»[٢].

---

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) ٣/ ٤١٠..

(٢) أحكام من القرآن الكريم ص ٨.



السبب الثالث:

أن الشيخ جعل جل قصده من هذا التفسير هو التأمل لآيات القرآن والتدبر في معانيها واستنباط فوائدها لينتفع بذلك وينفع المطلعين على هذا التفسير.

يقول رحمه الله: «والمراد من هذا الكتاب هو استنباط الفوائد من كتاب الله ـ عز وجل ـ ليحصل بذلك خير كثير»[1].

السبب الرابع:

أن الشيخ رحمه الله طبق في تفسيره أنواع الدلالة للألفاظ، فاستنبط بذلك فوائد كثيرة متنوعة.

يقول رحمه الله: «واعلم أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

مطابقة، وتضمن، والتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على جزء معناه دلالة تضمن، ودلالته على أمر لازم خارج دلالة التزام.

ولنضرب لذلك مثلاً معنوياً، ومثلاً حسياً.

أما المثل المعنوي: فانظر إلى اسم من أسماء الله وهو «الخالق» تجد أنه دل على صفة الخلق دلالة مطابقة، ودلالته على الخالق نفسه وحده أو على صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ودلالته على العلم والقدرة دلالة التزام، لأن الخلق لا بد فيه، من علم وقدرة، فمن لم يكن عالماً لا يستطيع أن يخلق، ومن لم يكن قادراً لا يستطيع أن يخلق.

أما المثل الحسي: فكأن نقول: «هذا بيت».

كلمة بيت تدل على جميع البيت، على كل ما يحيط به من سور البيت دلالة مطابقة،

(١) المرجع السابق ص ٨، ٩.

وتدل على هذه الغرفة وغرفة ثانية وغرفة ثالثة، وغرفة رابعة وعلى الحوش (البراح) وعلى المجلس والصالة دلالـة تضمن، وتدل على أن لهذا البيت بانياً دلالة التزام.

هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة إذا استعملها الإنسان استعمالاً جيداً حصل بها فوائد كثيرة، ولهذا تجد بعض أهل العلم إذا تكلم عن آية أو حديث، لاستنباط الأحكام استخرج أشياء كثيرة لاستعماله هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة، ومن الناس من يقصر فهمه عنها فلا يستطيع أن يستنبط إلا فوائد قليلة، نسأل الله أن يوفقنا لخدمة كتابه وأن يفقهنا في دلالته واستنباط فوائده وأن ينفع بهذا العمل، إنه سميع مجيب» [1].

فاعتماد الشيخ رحمه الله على هذه الأنواع من الدلالة أفاده كثيراً في سعة الاستنباط، وقد يكون ذلك أقوى الأسباب لكثرتها عنده.

السبب الخامس:

أن الشيخ رحمه الله تأثر بعلماء معاصرين ومفسرين مبدعين، من أمثال شيخه الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، والشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار، من أطلقوا العنان لأفكارهم وأقلامهم في استخراج هدايات القرآن والدروس منه.

أما السعدي فشيخه الذي تربى في العلم على يديه، وأما محمد رشيد رضا فقد سمعته مرة يذكر ذلك، وأنه استفاد منه كثيراً في تفسير الآيات والنظر في مدلولاتها وفوائدها.

***

(١) أحكام القرآن الكريم ص ٩، ١٠.

المطلب الثالث

التجديد عند العثيمين في طريقة تفسير الآيات والاستنباط منها

طريقة الشيخ العثيمين في تفسيره مغايرة لما عليه المفسرون المتقدمون من تحليل دقيق للآيات بذكر معاني المفردات اللغوية وأوجه الإعراب، والقراءات، والخلاف حول معاني الآيات ونحو ذلك، فهو رحمه الله نهج منهجاً سهلاً واضحاً لكل أحد يطلع على تفسيره، وأوجه التجديد في تفسيره للآيات من عدة وجوه.

الوجه الأول:

سهولة العبارة ووضوحها بحيث يستفيد من تفسيره العامة إضافة إلى طلبة العلم، مع أن عباراته عبارات علمية جزلة تتدفق علماً وحكمة.

الوجه الثاني:

البعد عن الإطالة والاستطراد حول تحليل الألفاظ وإعراب المفردات والجمل، فإنه جعل هدفه الوصول إلى هداية القرآن والفوائد المستنبطة من الآيات.

الوجه الثالث:

أنه أطلق الحرية لقلمه بما أوتي من علم وفهم لآيات القرآن، فلم يتقيد بعبارة غيره، بل كان ينشئ التفسير والاستنباطات إنشاءً.

الوجه الرابع:

أنه أكثر من تنزيل الآيات القرآنية على الواقع المعاصر، حيثُ إنه يحاول علاج واقع الناس وحياتهم من خلال التوجيهات القرآنية، وهذه ميزة في المفسر في عصره[1].

(١) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ص٥٤٤.



ويظهر شيء من ذلك خلال ما يلي:

١ـ الرد على بعض العبارات الشائعة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢١).

ذكر من **فوائدها**: «الرد على الذين قالوا: إن دين الإسلام دين مساواة، لأن التفضيل ينافي المساواة، والعجيب أنه لم يأت في الكتاب ولا في السنة لفظ (المساواة) مثبتاً ولا أن الله أمر بها ولا رغب فيها، لأنك إذا قلت بالمساواة استوى الفاسق والعدل، والكافر والمؤمن، والذكر والأنثى، وهذا هو الذي يريده أعداء الإسلام من المسلمين....»[١].

٢ـ التحذير من الغزو الفكري والأخلاقي:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧).

ذكر من **فوائدها**: «حرص المشركين على ارتداد المؤمنين بكل وسيلة ولو أدى ذلك إلى القتال، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾، ولهذا كان الغزو الفكري والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي، لأن هذا يدخل على الأمة من حيث لا تشعر...، فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي على الأمة الإسلامية أمور دينها ودنياها»[٢].

بهذا الأسلوب كان الشيخ رحمه الله كثيراً ما يربط الآيات بواقع الأمة اليوم، ويحاول التنبيه إلى المآخذ لتعالج من خلال الآيات، وإلى الجراح لكي تضمد بنور القرآن.

(١) تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) ٣/ ٨٠.
(٢) تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) ٣/ ٦٠.

٣ـ التحذير من الشعارات المضللة المفرقة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (االبقرة: ١٧١).

ذكر من **فوائدها**: «أن هؤلاء أمثالاً يدعون بدعوى الجاهلية، كأولئك الذين يدعون إلى القومية، فإن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، وهذه الدعوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتب عليها من تفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة، أو القومية، فيدخل فيها غير المسلم ممن تشملهم القومية، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممن لا تشملهم القومية.

لكن الرابطة الدينية التي قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (االحجرات: ١٠)، هذه تدخل جميع المؤمنين ـ ولو من غير العرب ـ، وتخرج من ليس بمؤمن ـ ولو كان عربياً...»[١].

وهكذا نجد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأسلوبه الممتع يربط الآيات بواقع الناس ويبين ما كان مخالفاً للحق كي يجتنب !.

الوجه الخامس:

من أوجه التجديد عند الشيخ في تفسيره أن الاستنباطات شملت كل الآيات التي فسرها، فيستنبط الفوائد ما كان منها ظاهراً جلياً، وما كان دقيقاً خفياً، وكانت هذه الفوائد منوعة، سواء كانت فقهية أو عقدية أو تربوية، أو غير ذلك.

(١) تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.



المبحث الثالث

التأمل والاستنباط عند الشيخ العلامة السعدي رحمه الله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : قوة التأمل عند الشيخ السعدي لآيات القرآن الكريم مع التمثيل.

المطلب الثاني : الاستنباط عند السعدي مع التمثيل.

***

المطلب الأول

قوة التأمل عند السعدي لآيات القرآن الكريم

الناظر في تفسير الإمام السعدي أستاذ الشيخ العثيمين ـ رحمهما الله تعالى ـ يجد أنه تميز بقوة تأمله لآيات القرآن الكريم، وتدبره لها، ودقة نظره في معانيها ومدلولاتها.

يقول الشيخ العثيمين رحمه الله عندما قدم لتفسير شيخه السعدي رحمه الله: «... أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير، حيثُ كان له ميزات كثيرة، منها: سهولة العبارة ووضوحها...

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد، والأحكام، والحكم، وهذا يظهر جلياً في بعض الآية، كآية الوضوء في سورة المائدة، حيثُ استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧ ، مقدمة الشيخ العيثمين لهذا الكتاب.

اتصف الشيخ السعدي رحمه الله بدقة تأمله للآيات وعمق نظره فيها واستنباطاته العجيبة أحياناً.

ومن الأمثلة الدالة على قوة تأمل السعدي للآيات أنه لما فسر آيات المواريث في سورة النساء وما تدل عليه قال:

«فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الأخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن من القرآن أم لا؟.

قيل نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة، يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات !!.

فأما القاتل والمخالف في الدين فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم، ونفعهم الديني والدنيوي، وقد أشار ـ تعالى ـ إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ (االنساء: ١١).

وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل، الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥). مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه، عوقب بحرمانه».

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو: اتصال النسب، الموجب للإرث، والمانع: الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع...

قال ابن القيم في (جلاء الأفهام): «وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ (النساء: ١٢)، إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب. والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين».

وأما الرقيق فإنه لا يرث ولا يورِّث، أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده، وأما كونه لا يرث فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ (النساء: ١٢)، ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له...»[1].

إلى آخر ما ذكر السعدي رحمه الله في كلام طويل، قرر فيه أن الآيات القرآنية دالة على مسائل المواريث كلها متضمنة لها، لكن يحتاج الاستدلال لبعضها إلى قوة تأمل ودقة نظر كما صنع رحمه الله في مثل هذه المسائل، وكما نقل عن ابن القيم رحمه الله مما يؤيد ذلك ويقويه.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٥٠.

المطلب الثاني

الاستنباط عند العلامة السعدي مع التمثيل

السعدي رحمه الله يمتاز تفسيره بسهولة العبارة، وكثرة الاستنباطات للأحكام والحكم والفوائد من الآيات أحياناً، وإذا وقف وقفة تأمل واستنباط عند بعض الآيات فإنه يبدع كثيراً ويأتي بالعجيب، حيثُ يستنبط فوائد تخفى على كثيرٍ من الناس.

ومن أمثلة ذلك أنه لما فرغ من تفسير الآيات في قصة موسى والخضر في سورة الكهف، قال:

«وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله:

١ـ فمنها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى ـ عليه السلام ـ رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

٢ـ ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم ـ علم الإنسان ـ أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

٣ـ ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر، لكفاية المؤن وطلب الراحة، كما فعل موسى.

٤ـ ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه...

٥ـ ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف: ٦٣).

٦ـ ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو عليه من مقتضى طبيعة النفس، من نصب، أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ (الكهف: ٦٢).

٧ـ ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكياً، فطناً، كيساً، ليتم له أمره الذي يريده.

٨ـ ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ (الكهف: ٦٢)، إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعاً.

٩ـ ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره، لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

١٠ـ ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً، وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير»، كما خرق الخضر السفينة لشعيب، لتسلم من غضب الملك الظالم.

فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان، بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن...»[1].

إلى آخر ما ذكره السعدي رحمه الله من الفوائد، والأحكام، والقواعد التي استنبطها من هذه القصة العجيبة.

ونلاحظ أن الفوائد التي يستنبطها منوعة.

ومن الأمثلة أيضاً: أنه استنبط من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٩).

استنبط منها تسعة أحكام[2].

الشيخ السعدي رحمه الله إنما يقف عند بعض الآيات أو بعض قصص القرآن، ويستنبط منها استنباطات كثيرة ومتنوعة، ويكون ذلك بعمق وطول تأمل وتدبر، لكن في أكثر الأحيان يقتصر على التفسير دون الاستنباط.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٥٦ ـ ٤٥٨.

(٢) انظر: تفسير الكريم الرحمن ص٦٣٧.

المبحث الرابع

موازنة بين الشيخين العثيمين والسعدي من حيث التأمل والاستنباط عند تفسير آيات الكتاب

تعتبر طريقة الشيخ العثيمين رحمه الله في الاستنباط امتداداً لطريقة شيخه السعدي في استنباطه الفوائد، والحكم، والأحكام، والدروس من الآيات، فقد لازمه سنين طويلة وتأثر به كثيراً، وتخرج على يديه، إضافة إلى ما في طريقة السعدي رحمه الله من التجديد في التفسير، والاستنباط، وربط الآيات بالواقع وفيما يلي أذكر أوجه التوافق ثم أوجه الاختلاف:

* **فأولاً: أوجه التوافق بين الشيخين في الاستنباط:**

الوجه الأول: أن الشيخين رحمهما الله اعتنيا بالتأمل، والاستنباط، واستخراج الفوائد، والأحكام، والدروس من الآيات.

الوجه الثاني: أن الشيخين قد أبدعا في ذلك، وأتيا بما لم يسبق إليه من دقة الاستنباط لبعض الفوائد التي تكون خفية إلا لمن تأمل وتدبر كثيراً لآيات القرآن، وكان راسخاً في العلم، والأمثلة السابقة يشهد بعض مواضعها لذلك.

الوجه الثالث: أن كلاً من الشيخين يبدأ بتفسير الآيات إجمالياً دون الوقوف عند دقائق التفسير بأسلوب علمي وسهل ثم يتبع ذلك بالاستنباط للفوائد والأحكام.

الوجه الرابع: أن كلاً منهما ينظر إلى كل آية نظرة مستقلة فيستنبطا ما فيها من الفوائد، والحكم، والأحكام، دون النظر إلى ما تقدم استنباطه من آيات مشابهة لها(١).

---

(١) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ص٥٨٧.

قال السعدي رحمه الله: «اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أن أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكري ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأنّ الله وصف هذا الكتاب أنه (مثاني)[1]، تثنى به الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها»[2].

الوجه الخامس: الاستنباط عندهما ليس محصوراً بشيء معين، بل هو شامل لكن ما يمكن أن يستنبط من الآية، ظاهراً جلياً، أم دقيقاً خفياً، يدخل في ذلك الفوائد العامة، والحكم، والأحكام، والدروس، والعظات، وغيرها[3].

قال الشيخ العثيمين رحمه الله: «وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية والدنيوية، والفردية والاجتماعية. ولا ريب أن كل آية من كتاب الله تتضمن فوائد عظيمة يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه»[4].

وقال في معرض بيان ميزات تفسير شيخه السعدي: «ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم....

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف:﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)»[5].

---

(١) في قوله تعالى: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ) سورة الزمر: آية ٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٧، وأصلَ هذا التنبيهَ جعلهُ الشيخ ـ رحمه الله ـ على غلاف المجلد الأول لأهميته، فصدر المحقق به كتابه هذا.

(٣) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ص٥٨٨.

(٤) أحكام من القرآن الكريم ص٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٧ مقدمة الشيخ العثيمين له.

فاستنباطات الشيخين عامة منوعة، ولذا يستفيد منها كل أحد، ويناسب طرحها في المدارسات العلمية، أو مجالس الوعظ والتربية.

الوجه السادس: أن كلاً من الشيخين قد أعمل القواعد العلمية عند استنباط فوائد الآيات سواء كانت تفسيرية أو أصولية أو غيرها[1]، وهذا في كثير من الأحيان، ومرجع ذلك إلى ما كان يتصف به كل من هذين الإمامين، من رسوخ في علم الشريعة، كالتفسير، والفقه وأصوله ونحو ذلك.

*** ثانياً: أوجه الاختلاف بين العثيمين والسعدي في الاستنباط:**

الوجه الأول: أن الاستنباط من الآيات عند الشيخ العثيمين قد شمل كل الآيات التي فسرها أو جلها، بخلاف السعدي فإنه يستنبط في بعض المواضع دون بعض، بل إن الآيات التي تركها دون استنباط هي الأكثر، وإنما يكتفي بالتفسير لها.

الوجه الثاني: أن الاستنباط عند الشيخ العثيمين أعم من حيث نوعية الفوائد، بحيث أنه يستنبط كل فائدة، ولو كانت ظاهرة جداً.

أمّا السعدي فإنه أخص استنباطاً في الجملة.

الوجه الثالث: أن الاستنباط عند الشيخ السعدي أقرب إلى الإيجاز، بخلاف العثيمين فإنه يطيل ويفصل ويفرع أحياناً، فالسعدي سلك مسلك الإشارة والاختصار، لأنه أراد تفسيراً مختصراً بعيداً عن الإطالة، أمّا العثيمين فسلك مسلك الإطالة، والاستطراد أحياناً[2]، ولعلّ السبب في ذلك أن الشيخ كان يلقي تفسيره إلقاءً ويمليه على طلابه، بخلاف السعدي فإنه كتب تفسيره ونقحه، وفرق كبير بين الإملاء والكتابة.

هذه هي أهم أوجه الاتفاق والاختلاف بين الشيخ العثيمين وشيخه السعدي في التأمل والاستنباط من الآيات فيما ظهر لي.

---

(١) انظر: جهود الشيخ بن عثيمين، آراؤه في التفسير ص٥٨٨.

(٢) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ص٥٨٨.

خاتمــة البحــث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بعد هذه الجولة، وفي بساتين هذين التفسيرين الجليلين لهذين الإمامين الكبيرين الشيخ العثيمين وشيخه السعدي ـ رحمهما الله تعالى ـ أخرج بالنتائج التالية:

الأولى : عظمة هذا القرآن العظيم، فإنه كتاب هداية وعبرة صالح لكل زمان ومكان ولكل حال.

الثانية: أهمية هذين التفسيرين، وخاصة في مجال استنباط الفوائد والحكم والأحكام من آيات القرآن.

الثالثة: تأثر الشيخ العثيمين بشيخه السعدي، حيث حذا حذوه في الاستنباط، وزاد عليه.

الرابعة: أن مجال الاستنباط مجال رحب لأهل العلم، فما عليهم إلا أن يتأملوا كتاب الله ويتدبروه ليستنبطوا ما يصلح أحوال مجتمعاتهم.

أسأل الله الكريم أن يجعلنا ممن يتدبر كتابه ويهتدي بهديه، إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***